أحمد

إقبال أحمد كما عرفتُه

بيرفيز هودبهوي

سألتني المرضةُ، وقد أعياها إدراكُ حزني العميق حين دَفَعوا بهِ أخيراً على كرسيٍّ نقّالٍ خارجَ قسم العناية الفائقة، إنْ كان ذلك أبي. لا، قلتُ لها؛ لقد كان رئيسَ عشيرتنا. غير أنّه لم يكن ثمةَ داعٍ لكي أشرح لها أنّ تلك العشيرة لم تكن عشيرةً بالمعنى المألوف، إذ لا روابط دمٍ تَصِلُ بين أفرادها، ولا وطنٌ لها أو دينٌ أو عِرْقٌ. أعضاؤها آلافٌ عدةٌ، منتشرون عبر القارات: من ڤيتنام إلى الضفّة الغربية والمغرب، ومن الهند وباكستان الى أوروبا وأميركا الشمالية. رابطُهم الوحيد إيمانٌ مشترك بكرامة الإنسان، وبالعدالة، وبالحرية، وبكلّ ما هو غنيٌّ ونفيسٌ في التجربة الإنسانية. كلُّهم، كلُّهم اليومَ، يَنْدبون إقبال أحمد، الرجُلَ الذي جَمَعَهم، وأحبوه حبّاً جمّاً.

الخطيب و"الإرهابي" والنّاصح

لم أكنْ قد سمعتُ بإقبال أحمد حتى سمعتُه يتحدث عام ١٩٧١ في معهد ماساتشوستش للتكنولوجيا (MIT) في تظاهرةٍ معادية للحرب [الأميركية ضد ڤيتنام]. وكنتُ قد أتيتُ إلى الولايات المتحدة طلباً للعِلْم، وكنتُ نتاجاً طبيعياً ـ معادياً للسياسة وحيادياً ـ لمدرسة كراتشي للقواعد Karachi Grammar School، ولكنّ الصدمة الحضاريّة التي شعرتُ بها جرّاءَ انغماري في المجتمع الجديد كانت أشْبَهَ برمي دلوِ ماءٍ مثلّجٍ عليّ. فقد تفتّحتْ عيناي فجأةً على حقيقة راعبةٍ في العالم: كان الأميركيون يقصفون ڤيتنام بقاذفات الـ ب ـ ٥٢ قصفاً سجّادياً منتظماً[١]، دافعين بها إلى العصر الحجريّ. وكان الباكستانيّون في غربيّ باكستان منشغلين بتطهير شَرقيِّها بعزيمةٍ كانت ستُشْعر الصربيّين اليومَ بالفخر! ولم يكن أيُّ باكستانيٍّ عرفتُه في بلدة كامبريدج، أطالباً كان أم مهاجراً، ليأبه البتّةَ بڤيتنام. وكان أغلبُ الباكستانيّين يمتدحون أفعال الجيش الباكستانيّ، ويرفضون الحكايات المعذِّبة المُقِضّة عن معاناة باكستان الشرقية ودمارها، ويؤكّدون أنّ الصور والتغطية التلفزيونية الإعلامية لواقع تلك المناطق محضُ اختلاقاتٍ صهيونية.

خلّفتني محاضرةُ إقبال في معهد ماساتشوتش للتكنولوجيا مصعوقاً مشدوهاً. فلم أكن قد شَهدتُ قبلاً مثلَ ذلك المزيج الكاسح من المعرفة والبلاغة والعاطفة المشبوبة، تُوَظِّفُ جميعُها بدقّةٍ سديدةٍ من أجل تحطيم الأساطير والأكاذيب التي أحاطت بمغامرة أميركا الإمبريالية [في ڤيتنام]. كان الحاضرون، وجُلُّهم من الأميركيين، يتعلّقون بكل كلمةٍ يقولها، فيما هو راح يَسْحرهم تارةً ويسلّيهم تارةً أخرى ويتحدّاهم ثالثةً ويعلّمهم رابعةً. وحين تجمهر المعجبون من حوله في إثر المحاضرة انضممْتُ إليهم. وفي العقود التي تلت، تحوّلتْ علاقتي به من إعجابٍ عميق إلى صداقة عميقة، فاقتناع راسخ بأنني كنتُ بإزاءِ رجلٍ من أنْدَرِ الجِبِلاّت وبأنّ كل لحظةٍ أقضيها معه ستكونُ لي امتيازاً.

في المستقبل سيكتبُ الناسُ كُتباً عن إقبال، وسيتحدثون، بلا ريب، عن انجراره من فرنسا إلى ساحة حرب الاستقلال الجزائرية، ممثّلاً الجزائرَ في محادثات السلام في باريس بين الطرفيْن. وسيحْكون عن محاكمة هاريسبُرغ الملحميّةِ الطول، وفيها اتُّهِمَتْ ـ ظُلْماً ـ حكومةٌ أميركيّةٌ عصبيةٌ إقبالاً وستةً آخرين بمحاولة خطف هنري كيسنجر وبتفجير نظام التدفئة في البانتاغون. وسيكون على الناس في المستقبل أن يرووا التفاصيلَ عن سعي قادة الثورات في إيران وفلسطين وكوبا والتشيلي إلى سماع نصيحته، دون أن يشكّوا قطُّ بأمانةِ والتزام ذلك الأمميّ الذي كان كلُّ وطنٍ في العالَم وطنَه. وفوق كل ذلك سيُخبرنا المؤرِّخون كَمْ جَهِدَ ـ وفَشِلَ ـ في أن يُبْطئ من وتيرة التفسُّخ الأخلاقيّ والتدهور الاجتماعيّ في البلد الذي حَمَل إقبال جوازَ سَفَره حتى موته، وفي أنْ يوقف الإبادةَ التي كانت ترتكبها قواتُه المسلّحةُ ضد البنغال، ومن ثمّ في أن يقوده بعيداً عن المواجهة النووية التي تهدّد بوشك الوقوع مع جارته [الهند] الواقعةِ إلى الشرق منه.

١ ـ القصف السجّادي carpet-bombing: إلقاءُ عددٍ ضخمٍ من القنابل على منطقةٍ بعينها، بهدف تدميرها تدميراً شاملاً. (المترجم)

المُثُل

يصف إدوارد سعيد إقبالاً بأنّه «الأحذق والأكثر ابتكاراً من بين جميع المحلّلين المعادين للإمبريالية في عالمِ ما بعد الحرب [العالمية الثانية]». وهذا صحيح، ولكنّ ذلك كله كان يترافق في شخص إقبال مع مُثُلٍ غيرِ قابلةٍ للفساد، ومع استعدادٍ لتأدية ثمن الاستقامة والأمانة الأخلاقية. فإقبال الذي كان يوماً وثيقَ الارتباط بالرئيس أحمد بن بلّه، راح يَنأى بنفسه عنه حين فَسدتِ المُثُل الثوريةُ الجزائرية. وعلبُ السيجار الهافانيّ الأنيق التي كنتُ قد اعتدتُ رؤيتها في شقّته في نيويورك، هديةً من فيديل كاسترو، توقفتْ عن الورود إليه حين اختلف مع كاسترو في قضيّة قمع المعارضين داخل كوبا. كما أنّ علاقاته بياسر عرفات، الذي كان يسعى بحماسٍ إلى سماع نصائح إقبال لسنواتٍ عديدةٍ وكان يرغب في أن يعطيه مقعداً في المجلس الوطنيّ الفلسطينيّ، ساءت بشدّةٍ بعد أن اقتنع إقبال بأنّ اتفاقيات أوسلو التي رَعَتْها الولاياتُ المتحدةُ ستكون كارثةً على الفلسطينيين.

بقي إقبال معظمَ حياته أستاذاً متجوّلاً في جامعاتٍ أميركيةٍ متعددةٍ، بعد أن نَبَذَتْه معظمُ الأوساط الأكاديمية الأميركية لمناداته الحارّة بحقوق الفلسطينيين. وكان يستدعي إلى أذهاننا أنّ زملاءه في جامعة كورنلّ آثروا أن يتناولوا طعامهم وقوفاً وبعيداً عنه، على أن يجلسوا معه أمام مائدةٍ واحدة في الكافيتريا! ولكنّ كليةَ هامشِرْ في ولاية ماساتشوستش مَنَحَتْه عام ١٩٨٢ منصبَ أستاذٍ ثابتٍ، فاندفع الطلاّبُ إلى محاضراته وصفوفه أفواجاً، بمن فيهم أولئك الذين اختلفوا معه سياسياً. وتتذكر طالبةٌ باكستانيةٌ زيارةً قام بها إقبال عام ١٩٩٢ إلى كلية دارتموث القريبة ليحاضرِ عن فلسطين، فقالت إنّ زميلتها التي تشاركها غرفةَ النوم ـ وكانت هذه يهوديةً بالولادة وصهيونيةً بالإيمان والاقتناع ـ شرعتْ بالبكاء أثناء محاضرة إقبال تلك لأنها اعتقدتْ أنّه مُنحاز؛ ولكنّه تحدّث إليها بعد ذلك بالعِبْرية، وبلطفٍ، وأقنعها بضرورة رؤية أبعادٍ مختلفة للمسألة المطروحة.

إنّ الخطباء اللامعين نادرون، ولكنّ المستمعين اللامعين أندر. ومع إقبال كان بمقدورك أن تتيقّن من أنّه لم يكتفِ بفهم ما قُلْتَه فحسبُ، بل كان يفهم أيضاً لِمَ قُلْتَه. ولهذا السبب سعى القادةُ الثوريون، والملوكُ والأمراءُ، والرؤساءُ ورؤساءُ الوزراء، والقادةُ العسكريون وأمراءُ البحر، إلى التحدث معه. ولكنّ مثلَ هذه اللقاءات لم تَرُعْهُ أو تُخَوِّفْه، بل كان يشعر بالطّبعيّةِ نفسها مع الناس العاملين، وكان الأطفالُ يحبّون الاهتمامَ الذي يُوليهم إيّاه، وكان الأقرباء الأبعدون يشعرون هم أنفسهم بالقرب منه.

آخر حدثٍ هام في حياته

عام ١٩٩٧ تقاعد إقبال من كلية هامشِرْ. ودعاني إلى حضور حَفْلِ احتفاءٍ به تنظّمه كليّتُه وأصدقاؤه الكثُر. وقد تدفّق المئاتُ من أرجاء «إنكلترا الجديدة» لحضور هذا النشاط، وبعضُهم جاء من مناطق بعيدةٍ مثل كاليفورنيا وكندا والجزائر والمغرب وتركيا وباكستان. وقُيِّض لنعوم تشومسكي أن يبدأ هذا النشاط مساءَ الجمعة بمحاضرةٍ عنوانُها «احتمالات العالم الثالث وما وراءه»، ولكنّ أعداد الحاضرين استمرت في التزايد، حتى اضطُرّ المنظّمون إلى التخلّي عن الخطّة الأصلية، فانتقل النشاطُ إلى قاعة الألعاب الرياضية التي ما لبثتْ بدورها أن اكتظّتْ بالحضور. وفي تقديري أنّ حوالى ألفيْ مستمع كانوا هناك؛ وقلتُ لنفسي إنّه لَـ «وود ستوك» من جديد!

اليومُ التالي من النشاط جَمَعَ أفضلَ مثقفي اليسار وأشهرَهم وأبرعَهم وأشدّهم التزاماً: أناساً مثل إدوارد سعيد، وهاورد زِنْ، ودانيال ألْزبرغ، وكورا ڤايس، وپيتر ڤايس، وستيوارت شار، وريتشارد بارنت، وآخرين... كان هاورد زِنْ مدهشاً حين راح يروي كيف لعب دانيال بَريغان لعبةَ «الغُمَيْضة» مع جهاز الـ FBI، ووقائعَ محاكمة إقبال الشهيرة في هاريسبرغ. وكانت كورا ڤايس مرحةً صاخبةً حين تحدّثتْ «عمّا يمكن أن يَحْدث لو ترأّس إقبال منظمةَ الأمم المتحدة»! ولم أكن أعلم أنّ بمقدور ألْزبرغ أن يكون على ذلك القَدْرِ من الجدية والإضحاك الذي كان عليه ذلك اليومَ.

بلى، تلك كانت عشيرةَ إقبال أحمد وقد اجتمعتْ في هذه المناسبة، فخلّفتني وأنا أوشك أن أفقد أنفاسي من فرط الانفعال والدهشة.

كنتُ أعلم أنّ إقبالاً قد ساعد أناساً كثيرين، وانتزع عَطْفَهم وإخلاصَهم. ولكنّ ما لم أكن أعرفه هو أنهم كانوا بتلك الكثرة، وبذلك الاختلاف، وبذاك التوزّع على أرجاء المعمورة، وبهذا الحب العظيم الذي يكنّونه لإقبال. لم تكن أصواتُ تلاميذه هي الأصواتَ الوحيدةَ التي راحت تتصدّع من فرط العاطفة والانفعال، بل كان ذلك أيضاً شأن صوت إدوارد سعيد، صديقِهِ الأقربِ ونُورِ فلسطينَ الأبرز. وإنّني لإخال أنّ ما أضفى على ذلك الاحتفال معنًى خاصّاً هو أنّه إلى حدٍّ ما كان يعيش من جديد الستينيّاتِ والسبعينيّاتِ من أيام حرب ڤيتنام، وإسهامَ إقبال في تعبئة المقاومة الشعبية الأميركية ضد الحرب... وذلك كان بالتأكيد ما اعتقدتُه أنا شخصياً. فالحق أنني كان يمكن أن أكون شخصاً مختلفاً

جداً لو لم ألتقِ العظماءَ ـ تشومسكي وإقبال وهوارد زن ـ في سنوات تكويني الجامعيّ في معهد ماساتشوستش للتكنولوجيا. ولهذا لم يكن سهلاً أن أخطب في ذلك الاحتفال بناءً على إصرار إقبال؛ ولكنه كان قد قدَّمني إلى الحضور بطريقةٍ لم يكن لي حيالها إلا أن أُذْعِن لطلبه.

كان احتفالُ هامشرْ ذاكَ آخرَ حدثٍ هامٍّ في حياة إقبال، وكان بدايةَ تصميمه على قضاء كلّ وقته تقريباً في باكستان. فحتى ذلك اليوم كان ما يزال يوزّع أوقاتَه بين التعليم في الولايات المتحدة، وكتابةِ أعمدة صحفية للجرائد، والعملِ على بناء جامعةٍ للفنون والعلوم في إسلام آباد سمّاها «الخلدونية»؛ وكانت هذه الأخيرةُ مشروعاً تكفّلتْ بنازير بوتو ونوّاز شريف بأنْ لا يرى النورَ قطُّ ! وكان الناسُ يسألون إقبالاً: «وكيف لك أن تتوقّع عكسَ ذلك حين تَرْفض أن تلطِّف من حدَّةِ قلمك»؟ ولم يكن إقبال ليملكَ جواباً جيّداً على هذا السؤال، ولكنه بقي برغم ذلك متفائلاً.

الموت

ثم شَرعتِ المنيَّةُ، صيّادةُ العمر الماكرةُ تلك، بملاحقة طريدتها بجدٍّ ومثابرة. وبين اللحظة التي ظلّلْتُه بشحوبها أوّلَ مرة، واللحظةِ التي طَوَته في جوفها، ستةُ أيّام بالكاد. إنّ الموت ليس أمراً محتوماً فحسب، بل هو أيضاً اللحظةُ التي تحدِّد صدقَ الإنسان. وأعتقد أنّك لو أردتَ أن تعرف جوهرَ الإنسان ولُبَّه فليس عليك أن تعرف كيف عاشَ فقط، بل كيف مات أيضاً. ولهذا أودُّ أن أخبرك، أيها القارئُ، كيف مات إقبال أحمد.

حين أخذناه إلى المستشفى كان في حالة مريعة؛ فقد كان يقيء بعنف ويشعر بآلام حادةٍ في صدره. ولكنْ كانت ثمة مراحلُ هادئةٌ راح يسألُ فيها عن العالَم الخارجيّ. وحين أخبرتُه عن استعدادات باكستان للاحتفال بذكرى اختباراتها النووية هزَّ رأسَهُ بقرفٍ صامت. قلتُ له: «حين تتحسَّن صحتُك أرغب في أن تطّلع على مقالةٍ كتبتُها للتوّ ضدّ تلك الاحتفالات». «لا»، أجابني، «أَعْطِني مقالتك الآن!». ثمّ عدّلَ من وضع المصل الناشب في عروقه بحذرٍ لكي يتمكّن من القبض على قلمه، وطلب مني أن أَرفع سريره العياديّ الى جِلْسَةٍ شبه قائمة، وجعل يقرأ المقالةَ مُضيفاً ملاحظاته التحريريةَ هنُا وههناك. وإذّاك قلتُ لنفسي إنّ ذلك هو ما فعله إقبال طوال حياته: فهو لا ينى يساعد الآخرين ويهتمّ بمشاكلهم ويَقلق بما سيصير إليه العالَمُ.

في اليوم التالي كَشفتِ الفحوصاتُ الطبيةُ عن وجود تضخُّمٍ في القولون [وهو الجزءُ الأسفل من المعي الغليظ].

وكانت لحظة توتّرٍ حين دخل الطبيبُ الغرفةَ. سأله إقبال: «هل التضخُّم سرطانيّ؟» كنتُ أنظرُ إلى وجه إقبال بتمعّنٍ حين أومأ الطبيبُ صامتاً برأسه إيجاباً. لم يكن على وجه إقبال خوفٌ ولا استسلامٌ، بل تأمُّلٌ قصيرٌ فقط . وما هي إلا لحظات حتى انغمر انغماراً كاملاً في البحث في خطط العملية الجراحية.

بلى، كان ذلك موجعاً! بل كان الوجعُ لعيناً لا يرحم، حين استلقى إقبال في قسم العناية الفائقة بعد عمليةٍ دامت ثلاث ساعات لاستئصال القولون. كان الوجع كما يمكنك أن تتصوّره، بل فوق ما يمكنك أن تتصوّره! كان المورفين يُغيِّبُه عن الوعي برهةً، ولكنّك كنتَ ترى أنّ الوجع لم يَبْرح. ومع ذلك بقي إقبال حتى اللحظة الأخيرة أميناً لجوهره وخلاصته المصفّاة. فقد بقي عقلُهُ حادّاً، نقدياً، تحليلياً. كان يريد أن يعرف عن كل دواء : كميةَ الجرعة، وأثَره، وعقابيلَه بعد زوال ذلك الأثر. وبقيت ظرافتُه برغم الألم؛ فقد أخبر إحدى قريباته أنّ «السيدة دايموند (وهي حماتُهُ التي تتجاوز التسعين) لا يمكن تدميرُها». ثم لاحظتُ بدوري، بَعْدَ مزحةٍ من مزحاته، أنّ حسَّ الفكاهة عنده لا يمكن تدميرُه هو الآخر. وإذّاك قال: «إنّ حسّ الفكاهة شيء مفيدٌ للمرء أحياناً. ولهذا أحبّ أن أحمله معي دوماً».

كان إقبال يعلم أنّه يموت، ولكنّه لم يقمْ بأيّ ابتهالات عقيمةٍ، ولم يطلب شيئاً، ولم يتوقع شيئاً. وبقيتِ استقامتُه الخلقيةُ وكرامتُه سليمتيْن مصونتيْن حتى اللحظة الأخيرة. فَلْيتَّخِذِ الآخرون بِلْسماً مُسَكِّناً من أيّ نوعٍ شاؤوا، ولْيمارسوا الهراءَ الغيبيَّ الذي يؤمنون به أيّاً كان جنسُه، فإنّ إقبالاً لن يتَّخذ شيئاً من ذلك كلّه لنفسِه، ولكنّه لم يكن ـ في الوقت نفسه ـ لَيثنيَ الآخرين عن اتّخاذه إنْ كان ذلك سيُشْعِرهم بالتحسُّن.

لقد روّع إقبالُ أطبّاءَه إجلالاً واحتراماً، وأُغْرِمَتْ به المرِّضاتُ. ولا شك أنّه كان أغربَ مريضٍ في قسم العناية الفائقة رأوْه في حياتهم. فعلى الرغم من أنه كان مشدوداً إلى متاهةٍ من الأنابيب والأسلاك، وعلى الرغم من حَوَمانه على حافة الموت، فإنّه لم يتوقف عن إشراكهم في الحديث، وبقي مصرّاً على معرفة كل شيء، ووبَّخ ممرِّضةً عديمةَ الكفاءة شكَّتْهُ بالإبرةِ خمس مرّات بحثاً عن عِرْقٍ دون جدوى، وامتَدَحَ ممرضتَيْن أُخْرَيَيْنِ... ولكنّه سَحَرَ الجميعَ، بمن فيهم تلك التي وبَّخها.

كانت الساعةُ الخامسةَ والدقيقة الخامسة والعشرين من صباح أيار (مايو) ١٩٩٩ حين طَلَبَ مني أن أُجْلِسَه. وإنْ هي إلا لحظات حتى ارتسم على الشاشة البيانيّة الكهربائية لعمل القلب خطٌ أفقيٌّ مستقيمٌ. وحين غطَّوْه رأيتُ دموعاً تَقْطر من عينَيْ إحدى الممرضات.

إسلام آباد